شعب شريد

النـــور

نشأتهم وخواصهم وفنونهم

النور (الغجر) جنس غريب من البدو الرحل ، مشتت فى سائر أنحاء العالم ، فى أوربا وغرب آسيا وشمال افريقية وأمريكا وأستراليا ، ويقدر تعداده بنحو تسعمائة ألف نسمة ، منهم فى المجر وحدها نحو ٢٨٠ ألفاً ، وفى رومانيا نحو ٢٥٠ ألفاً ، وفى تركيا نحو مائة ألف ، وباقيهم مشتت فى سائر الانحاء . ويقول بعض علماء اللغة أن كلمة « Gypsies » ومثيلاتها فى الأوربية ، ومعناها النور ، مشتقة فى الأصل من كلمة « Egypt » أعنى مصر ، ويستدل البعض بذلك على أن النور ربما نزحوا من مصر الى أوربا فى غابر العصور . بيدأن أصلهم غامض جداً ، وكل ما يمكن أن يقال فى ذلك أن النور ظهروا فى أوربا ، وبالأخص فى بلاد البلقان ، منذ القرن الرابع عشر ، ثم انتشروا فى جميع البلدان الأوربية حتى سواحل البلطيق وانكلترا ، وعرفوا بالبداوة وعدم الاستقرار ، يتنقلون دائما ويقيمون فى الحقول والغابات فى خيام يحملونها ، ويسافرون على الخيل والعربات المقفلة ، ويزاولون الحرف المريبة كالسحر والتنجيم ؛ وعرفوا أيضاً بكثير من الخلال السيئة وبانحلال الأخلاق والاقدام على ارتكاب الجرائم .

ولما اشتد عيثهم فى أواخر القرن السادس عشر ، قررت فرنسا ومعظم دول أوربا نفيهم وعقاب المخالفين بالاعدام ، فطوردوا فى كل مكان وعذبوا وأحرق منهم كثيرون لأنهم « نور » فقط . وفى القرن السابع اشتهروا بخطف الأطفال ، وهبت عليهم من أجل ذلك ريح جديدة من المطاردة ، وكانوا فى كثير من البلاد ولا سيما رومانيا والمانيا يعتبرون رقيقاً يحل بيعهم وشراؤهم . ولكنهم منذ القرن الثامن عشر ، أخذوا يتقدمون فى اكتساب الحقوق العامة ، ومنحوا الحرية فى المجر ، واهتمت بأمرهم الامبراطورة ماريا تيريزيا ، وأمرت بتعليمهم الزراعة ، وتحسنت أحوالهم وأطوارهم نوعا . وفى القرن التاسع عشر اعترفت بهم معظم البلدان كرعايا ، ومنحوا الحقوق والحريات السياسية . وفى سنة ١٩٠٦ عقد النور ومن يهتم بأمرهم مؤتمراً فى صوفيا عاصمة بلغاريا ، وطالبوا بالاعتراف لهم بكافة الحقوق التى تمنح لباقى الرعايا

وعرف النور منذ عصور باتقان بعض الحرف مثل صنع الحلى والأوانى النحاسية الدقيقة ، وأجراس الكنائس ، والنجارة ، وصنع السلال ، والحفر أحياناً ، واشتهروا بالاتجار فى الخيل ؛ بيدأنهم اشتهروا بالأخص بالبراعة فى الموسيقى ، وهى موسيقى خاصة بهم ، وذهب بعض النقدة الموسيقيين فى تقدير الموسيقى النورية الى حد بعيد ، حتى قال الموسيقى المجرى الكبير (لسزت) إن الموسيقى المجرية ترجع الى أصل نورى . كذلك برع النور فى الغناء والرقص ، واشتهر نساؤهم بالتنجيم وقراءة الكف والورق ، ولنساء النور جمال شرقى خلاب ، ولكن تغلب عليهم الرثاثة ، ولهن ولع بالثياب والحلى ، ويغلب عليهن الانحلال الخلقى

وليس للنور دين خاص بهم ، ولكنهم يعتنقون فى الغالب دين البلد الذى يحلون به ، وتغلب عليهم التقاليد الوثنية والخرافات ، كذلك ليس للنور لغة خاصة معروفة ، ولكنهم يتكلمون لهجات عديدة ، وقد دل البحث على أن هذه اللهجات ترجع الى بعض اللهجات الهندية ، حتى اعتقد البعض أنهم نزحوا أصلا من الهند .

* * *

هذا وقد قرأنا عن النور وخواصهم وأخلاقهم وفنونهم بحثاً ممتعاً للكاتب المجرى الكبير يوليوس كودولانى ، رأينا أن ننقله لقراء «الرسالة» فيما يلى ، وحديث الكاتب يتعلق على الأخص بالنور المجريين ، وهم كما رأينا أكبر كتلة من النور فى العالم . قال الكاتب :

لبث النور المجريون حتى أحدث العصور يقاومون كل محاولة لتمدينهم ، وقد كانوا كأبناء جنسهم فى البلاد الأخرى يعيشون فى جماعات بدوية متنقلة لا ترتبط برباط المواصلة ، ولم ينتهوا إلا فى أيامنا الى البدء بالاستقرار ومزاولة الأعمال المنظمة . ويوجد فى المجر نوعان من النور : « نور الكولومبار » ، « ونور القلاج » وكلاهما يرجع الى أصل آرى كباقى النور ، ولكن توجد بينهما

فروق ظاهرة فى طرق الحياة وفى اللغة والأخلاق ، وكذلك فى القوام والمحيا ، وبينما يميل الكولومبار الى الرباعة والغلظة ، اذا بالثلاج غالباً ممشوق القد ، وسيم المحيا . ولنور الكولومبار لدى الفلاحين سمعة سيئة ، ويشعر الفلاحون نحوهم ببغض مقرون بالخوف ، فاذا مانزلوا بجوار قرية ما بذل الفلاحون كل ما استطاعوا للتخلص منهم ، واتخذوا كل تحوط للمحافظة على دجاجهم ومواشيهم وثيابهم .

ويشتغل نور الكولومبار بصنع الآنية وأقمشة الخيام وبعض أعمال الحدادة . ويزاول نساؤهم السحر ولهن فيه براعة ، ويتبعن فى مزاولته كثيراً من الرسوم الوثنية التى اختفت من بين الشعوب المتمدنة ، وهن يتنبأن بالمستقبل ويكشفن الأوراق ، ولهن براعة مدهشة فى الوقوف على عواطف الرجال وغرائزهم ، ويعربن فى نبوءاتهن عن الأمانى الخفية ، والشهوات المكتومة ؛ ويلجأن الى الرسوم الرمزية ، ويكتشفن ما يجول فى صدور قصادهن من الرغبات والشهوات . وقد بثت الحياة الخشنة المضطربة ، والعزلة الدنيوية ، والحرمان المستمر ، فى نفوس هاته القبائل ميلاً الى تحقيق الغاية دون عنف وبوسائل ملتوية ؛ فهؤلاء النور يكذبون ببراعة ، ولهم فصاحة مقنعة ، ومثابرة مدهشة . ولو أردنا أن ندرس من الوجهة النفسية أساليبهم وتأثيرهم الغريب ، شبه الروحى ، الذى يبثونه فى نفوس ذوى الغرائز المضطربة لانتهينا الى نتائج فى منتهى الأهمية . وهم الشعب الوحيد الذى استطاع أن يحتفظ فى قلب أوربا ، وفى قلب المجتمعات المتمدنة بالحياة البدوية التى تذكرنا بحياة الهنود الحمر فى أمريكا الجنوبية أو الزنوج فى افريقية . ذلك أنهم معرضون دائماً لنزعات الطبيعة ، ولهم علاقات دائمة مع قواها ، فهم يحملون بذلك الى كل ما يقرب من الحيوان والغريزة

والنور لا يملكون شيئاً ، ولذا فهم لا يحترمون الملكية ؛ فاذا استطاعوا الاستيلاء على شىء استولوا عليه بأى الوسائل ، وحياتهم العائلية منظمة على قاعدة الشيوع ، وأن لا ملكية يعترف بها ونور «الثلاج» أظرف وأفضل خلالاً من نور الكولومبار ؛ وهم يشتغلون عادة بصنع الآلات الخشبية بمهارة ، ويطوفون القرى لبيعها ، ويبدون فى جميع الأسواق مثقلين بالسلع . ويرتدون ثياباً وأزياء غير تلك التى يرتديها زملاؤهم ، ويسكنون غالباً فى السهل ، عند أطراف القرى ، فى بيوت من الطوب الأخضر ، ويعنون بتربية الماشية . وفى أقاليم المجر الغربية ينشئون نوعاً من القرى المنعزلة بجوار الغابات ، ويلعب أطفالهم عراة بين الأعشاب والماء . ولهاته القبائل قضاة منها يختصون بالفصل فى المنازعات الصغيرة ؛ ولا يعيشون عيشة العائلة إلا حيثما اكتسبوا نوعاً من الملك كقطعة أرض أو منزل قروى . ولهم ولع بالخيل واقتنائها بأى الأثمان

وأهل القرى لا يبدون لنور « الثلاج » من البغض مايبدونه لنور الكولومبار . وهم يعاملونهم بكبرياء واحتقار ولكن بنوع من العطف ؛ ولا يخشون منهم على متاعهم وأموالهم بمثل مايخشون من زملائهم ؛ ويكثرون من التصدق عليهم ، ويعهدون اليهم بصنع الأشياء الخشبية . وعلى ذلك فاذا كان النورى الثلاجى لا يمكن أن يعتبر عضواً فى المجتمع ، أو إنساناً متمدناً ، فانه فى طريقه ليصير كذلك . وهو منذ الآن ينزل عن بعض العادات التى كان يتمسك بها دائماً فيقص شعره ويرتدى السراويل ، ويعتاد العمل ، ويرغب فى اقتناء الملك شيئاً فشيئاً ؛ وهذا بلا ريب أساس قوى للتطور

***

وأخلاق النورى نتيجة محتومة لنوع حياته ، فهو لا يملك أرضاً ولا بيتاً ؛ وما يملك من المؤن والأدوات وغيرها ليس له فى الواقع ، بل هو ملك الجماعة كلها ؛ وهو لا يشعر بشعور الأسرة ولا يقدر معناها ، ولما كان لا يرث ولا يورث ، فسواء لديه أكان ولده منه أم من آخر . وكذلك المرأة النورية لا تختص برجل واحد كنساء الشعوب المتمدنة ، فهى مخلوق همجى ، لا تنكر غرائزها ، ولا تستطيع أن تكبح جماحها ، والطفل النورى يعيش مع أسرته فى نفس الخيمة أو الكوخ ، ويشهد عن قرب حياتها التناسلية ، فاذا شب اتجهت شهواته الجنسية الأولى الى الأسرة ، فيعاشر الأخ أخته ، والولد أمه ، والأب ابنته ، وتجرى هذه المعاشرة دون ذرة من الحرج أو الندم . ولا حاجة للقول بأنه لا وفاء بين الأزواج ، فهم كاثوليك ويذهبون الى الكنيسة فى

الحفلات الكبرى ، ولكن مبادئهم الأخلاقية ليست نصرانية في شيء ، بل هم غالباً صرعى غرائزهم الوحشية

وقد اهتم الارشيدوق يوسف (١٨٣٣ — ١٩٠٥) بأمر النور وأبدى نحوهم عطفاً ، وبعث ذلك الى الاهتمام بشأنهم ، وكان هذا الأمير العظيم الذى يعشق حياة البداوة والبساطة ، ينفق كل أوقات فراغه بين النور ، ويدرس حياتهم ، ويتذوق رقصهم وأغانيهم وأمثالهم وأطوارهم وخلالهم ، وقد حاول أن يعودهم الحياة المنظمة ، وأن يجمعهم فى مكان مستقر ، ولكنه لم ينجح كثيراً فى محاولته ، ثم عكف الباحثون على جمع الأغانى والأمثال النورية وترجمتها ، ولكن هذا الاهتمام فتر فيما بعد ، ولما كان النور اليوم فى طريق التحضر والاندماج فى المجتمع المتمدن ، فقد يعود هذا الاهتمام بعد فوات الوقت ، وبذا تضيع معالم جنسية ونفسية الى الأبد . بيدأنه قد يكون ثمة أسر أو قبائل ما زالت تحتفظ بخلالها الوثنية ، وبأساطيرها ، وقصصها ، وأغانيها ورقصاتها ، وتلك يمكن تخليدها بواسطة السينما أو « الجراموفون »

وقد قلنا إن إبعاد النور عن المجتمع المتمدن ، واضطهادهم المستمر ، وحياتهم البدوية ، تحملهم على الريبة والوجل والعنت وانتهاز الفرص وسرعة التأثر ، وهم لا يهتمون بغدهم ، ويحتملون شقاء الحاضر بجلدِ الشريد ، كالأطفال أو الشعوب الهمجية . وهذه الصفات ذاتها تمثل فى فنهم ، فرقصاتهم عاصفة مضطرمة الروى ، فياضة بالغزل ، ونصوص أغانيهم فياضة بالرموز الغرامية ، والكلمات الضخمة ، والأخلاص الساذج ، وألحانهم محزنة منكسرة ، روى مطبق ، وغزل مطلق ، وفسق خالص يلهب أعصابهم ، وهذا ما يشحذ مشاعرهم بنوع خاص ، ويعاونهم على التمكن من روح الموسيقى والقوافى الأجنبية ، واعتيادهم المستمر على الوسط والعنف ، وعشرة الأجانب تحدث فيهم نفس الأثر ؛ فالنورى الرومانى ينشد الأغانى الرومانية ، والنورى السربى ينشد الأغانى السربية ، والنورى السلافى ينشد الأغانى السلافية ، ويجمعون فى كل مكان عناصر الموسيقى الخاصة بالشعب الذى يعيشون بين ظهرانيه ؛ والنورى المجرى ، هو الوحيد الذى لا تتأثر موسيقاه بخواص الموسيقى الريفية المجرية ، وذلك لأسباب خاصة به وبظروفه

ذلك أن الموسيقيين من النور المجريين هم أشراف النور ، فهم يرتفعون فوق مستوى جنسهم ، وفى أحيان كثيرة نراهم وقد نسوا لغتهم الأصلية ، وغيروا كل ظروف حياتهم . وفى القرى يتحول النورى من حرفته العادية الى الموسيقى ، وفى يوم الأحد وأيام الحفلات أو السوق يحمل آلاته الموسيقية ، القيثارة أو المزمار أو غيرهما ، ويذهب مع بعض زملائه الى مجالى النزهة ، ولموسيقاه ضجيج مروع ، وصخب يصم ، ولا تشترك مع موسيقى الحضر الا فى الروى ، ويتحول النور الى احتراف الموسيقى شيئاً فشيئاً ، ويهجرون صنع الأوانى والسلع الخشبية والآجر ، ويجتمع بعضهم فيؤلفون فرقة (أوركستر) ويتجولون يوم السوق من قرية الى قرية ، ويلاحظ أيضاً أنهم أخذوا يستبدلون ثيابهم النورية بثياب الحضر ، وبين النور المجريين كثيرون ممن درسوا فى معهد الموسيقى الأعلى (الكونسرفتوار) ، ومنهم من درس الموسيقى نظرياً وعملياً ، ومنهم فنانون يعجب بفنهم العالم كله ، فهم حقاً من أمراء الموسيقى ، ثم مقامهم فى المجر وفى الخارج ؛ وممن قدر موسيقاهم وأعجب بها أساتذة عظام مثل هيبرمان ، وكيبورا ولسزت

وقد كان من المستطاع أن نحمل النور المجريين على درس الموسيقى الريفية الأصلية ، كأخوانهم نور رومانيا أو سلوفينا أو روسيا ؛ فالنور يتلقون ببراعة مدهشة كل فن وكل روى ، وتلك أعظم خواصهم ؛ والنورى يغتبط جد الاغتباط اذا ألفى مستمعاً يستطيع أن يرشده وأن يعلمه الأسلوب الحق ؛ وعندئذ يدرك معنى الموسيقى الريفية وينفذ الى روحها ، ويترك تلك الألحان الصاخبة التى يملأ بها أغانيه . ولسنا ممن يجارى بعض المتشائمين من نقدتنا الموسيقيين فى قولهم بوجوب القضاء على الموسيقى النورية ؛ فان لديهم خواص عجيبة ترجع الى مقدرتهم على التشبه والاقتباس .

* * *

هذا وقد استطاع النور فى اسبانيا وانكلترا وبسارابيا واليوكرين أن ينشئوا ثقافة موسيقية خاصة . وأغانى النور الأوكرانيين ورقصاتهم ذائعة معروفة فى كل مكان . أما النور

المجريون فلا يعرضون علينا فنهم قط ، حتى ليقال أن ليس لهم فن . ولكنهم فى الواقع ينشدون أغانيهم فيما بينهم ، ويرقصون رقصاتهم ، ويتلون أمثالهم وقصصهم . وهم يعيشون فى عزلة مطبقة حتى أن البحث عن خواصهم الجنسية والفنية ليصطدم بأكبر الصعاب . ولديهم وسيلة أخرى للدفاع هى لغتهم التى هى مزيج من العناصر السلافية والرومانية وغيرها . وهم يضمرون البغض والريبة للأجانب لما فرض عليهم من الحياة الوضيعة التى تكاد تنحط الى المستوى الحيوانى ، وشأنهم فى ذلك شأن القبائل الهندية التى غزاها الأوربيون . والنورى يقدر ما بينه وبين الغير من الفروق ، ويعرف أن الغير لا يعتبره انساناً بالمعنى الصحيح ؛ ولا يجد سوى الموسيقى للتعبير عن نفسه ومقدرته ؛ فاذا سنحت له فرصة العزف ، فانه يملأ موسيقاه وألحانه بكل ما يشعر به من الشهوات وألوان البغض والغضب ، والحنان ، والثورات ، والاحتقار ، والفرح ، واليأس ؛ ويبقى النورى فى ذلك المجتمع المتمدن الرأسمالى ، النصرانى ، الذى يرغمه على الاستقرار والاعتراف بالملكية ، والتنصير ، والخضوع للقوانين بين الغابات والسهول الموحشة — يبقى دائماً وثنياً ، جامح العاطفة ، مخلوق الغريزة ، ويلجأ الى الموسيقى لبث مقاومته وشكواه ؛ ولو نبذ النورى أساطيره وسحره ، ونسى لغته ، وترك قصصه وأناشيده ورقصه ، فانه يبقى مع ذلك نورياً بالموسيقى .

ولن تمضى أعوام أخرى حتى يغمر النور ذلك البحر الانسانى الذى يحيط بهم ؛ ولن تمضى أجيال قليلة حتى يغدو النور كالزراع ، وينسون كل خواصهم وتقاليدهم ؛ ولن يبقى من الفن النورى سوى قليل من الأغانى والقصص ، ذلك الفن الذى هو أعجب الفنون الشعبية وأكثرها طرافة ؛ وعندئذ لن نجد سوى بعض الفنانين الذين ينحدرون من أصل نورى ، يتجولون هنا وهنالك فى بعض المدن ؛ بقية شعب كبير كان يجوب السهول والغابات ، يزاول السحر والكهانة ، ويخاطب الأرواح ، ذليل عزيز مع ذلك لأنه حر . وتلك خسارة فادحة للنور وللوثنية والقصص والحرية ... بيد أنه يستحيل علينا أن ننقذ النور فى ذلك المجتمع الذى يناقضهم فى كل شىء .

بين توفيق الحكيم

وأهل الكهف

بقلم شهدى عطيه الشافعى

قرأت لتوفيق أهل الكهف فيمن قرأ . وأحببتها حباً يفوق حب الناس لها . ولكن ناحية منها لم ترضنى ، وليس ذلك بجريرة للمؤلف آخذها عليه . ولكنه شعور نفسى تملكنى

منظر

فى إحدى جنان الخلد. ثلاثة رجال متكئون على الأرائك وأمامهم أباريق وأكواب من ذهب وفضة ، والأطيار من حولهم تشدو

مرنوش : (متأملاً حوله) — يالله ! ما أبدع هذا وما أجمله ! مشلينيا أيها الكسول . ألا تستيقظ لتستمتع بهذا الجمال .

مشلينيا : (يفرك عينيه) أهذا أنت يامرنوش ! أين نحن ؟ لسنا فى الكهف .

مرنوش : (فى حدة) الكهف ؟ تباً لك ! لاتذكرنى به ، لقد كان كابوساً مخيفاً .

مشلينيا : لعنة الله عليه ما أشأمه . . . وهذه الثلثمائة عام التى لبثناها فيه . ! وملك آخر مسيحى مكان دقيانوس الوثنى . . وبريسكا غير بريسكا . كيف كان كل هذا ؟

يمليخا : (مستيقظاً) حمداً لك يا خالق السموات والأرض . اللهم إنا نمجدك ونؤمن بعيسى نبيك

مرنوش : (مأخوذاً) يمليخا ؟ كيف أنت ؟

يمليخا : (فى خشوع) ألا تحسان فيضاً من النور الالهى يخترق شغاف القلب . كأنى على قيد ذراع من الله . يالروعة هذا !

مرنوش : (فى عجب) إنك لتبدو جميلاً يا يمليخا . أنّى لك هذا الثوب المزركش وذلك الوجه الصبوح ؟

مشلينيا : (فى دهش) ولكنك لم تر ثيابنا يامرنوش . إنها موشاة بالذهب . مَن أتانا بها (ناهضاً) . مرنوش ياللعجب !